مقدمات تأصيلية

كيف تعد:
درسًا في التفسير وتلقيه؟

كيف تبحث:
مسألة فقهية؟

كيف تشرح:
حديثًا؟

فيصل بن علي البعداني

/ أولاً

كيف تعد درساً في التفسير وتلقيه ؟

كيف تعد درسًا في التفسير وتلقيه؟

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فيسرني من خلال الكلمات التالية أن أسلط الضوء على الخطوات العملية لإعداد درس في التفسير، ومن ثم إلقاؤه، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً: خطوات إعداد الدرس:

الإعداد الجيد للدرس من أهم عوامل نجاحه؛ بل إن المدرس لن يتمكَّن من تحقيق ما يرمي إليه من أهداف مختلفة بدونه.

والخطوات المقترحة للقيام بتحضير جيد للدرس، تتمثل فيما يلي:

1- تحديد الآيات المراد تفسيرُها، والتأكُّد من تناسب مقدارها مع الوقت المتاح للدرس.

2- أن يستوعب المدرس المادةَ العلمية في الكتاب الذي يتمُّ تدريسه.

3- تحديد أهداف الدرس، سواء أكانت معرفية، أم وجدانية، أم مهارية.

4- تحديد موضوع السورة أو الآيات المراد شرحُها.

5- أن يراجع المدرس ما يتعلَّق بالآيات في كتب التفسير وغيرها من الكتب المعتمدة[1]، بحيث يكون متحريًا الدقةَ، حريصًا على الصحة فيما يجمع من معلومات.

6- أن يدوِّن المادة العلمية، والفوائد الدعوية والتربوية التي تتضمنها الآيات، وينظمها بأسلوب يتلاءم مع مستوى الطلاب ويجذب اهتمامهم.

7- أن يفكر في أفضل الأساليب التي يمكن بها إيصال المادة التي تتضمنها الآيات للطلاب، والوسائل التعليمية المتاحة التي يمكن أن تعينه على ذلك.

8- أن يقوم برسم خطته للدرس، ومن ثَمَّ تدوينها، وتقسيم الوقت المتاح على كل خطوة من خطواتها بصورة تضمن توصيل المعلومات للدارسين بصورة مُرضية[2].

ثانيًا: خطوات إلقاء الدرس:

يحسن أن يقوم المدرس في درس التفسير بالخطوات التالية:

الخطوة الأولى: التمهيد:

[1] المصنفات التي يمكن الإفادة منها في درس التفسير متنوعة، فإن كان الداعية يلقي درسه لعامة الناس، فيمكنه أن يجعل الكتاب المقرر: "تيسير الكريم الرحمن" للسعدي، ويرجع في التحضير إلى الكتب التالية: "أسباب النزول" للواحدي، "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة، "أيسر التفاسير" للجزائري.

وإن كان الداعية يلقي درسه لفئة متوسطة من طلبة العلم، فيمكنه أن يجعل الكتاب المقرر: "معالم التنزيل" للبغوي، ويرجع في التحضير إلى الكتب التالية: "أسباب النزول" للواحدي، "تفسير غريب القرآن" لابن قتيبة، "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، "فتح القدير" للشوكاني، "في ظلال القرآن" لسيد قطب، بشرط قيام الداعية باختيار الدروس والعِبر المناسبة منه للدارسين، وتقريبها لهم بلفظه.

وإن كان الداعية يلقي درسه لفئة متقدمة من طلبة العلم، فيمكنه أن يجعل الكتاب المقرر: "تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، ويرجع في التحضير إلى الكتب المختلفة كـ: "جامع البيان" للطبري، "المحرر الوجيز" لابن عطية، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، "البحر المحيط" لأبي حيان، "روح المعاني" للآلوسي، "أسباب النزول" للواحدي، "الناسخ والمنسوخ" للنحاس، "الكشف عن وجوه القراءات السبع" لمكي، "المفردات" للراغب الأصفهاني، "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور"، و"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، كلاهما للبقاعي، "التحرير والتنوير" لابن عاشور، "في ظلال القرآن" لسيد قطب.

[2] يذكر أ.د. محمد مجاهد في كتابه: "طرق تدريس المواد الدينية"، ص: 44 - 47: أن المبادئ التي يجب مراعاتها في اختيار المادة العلمية وترتيبها تتلخص فيما يلي:

- صحة الحقائق العلمية.
- مناسبة المادة العلمية لعقول التلاميذ.
- ارتباط المادة العلمية بواقع الحياة.
- ترتيب المادة العلمية ترتيبًا مناسبًا.
- تناسب المادة العلمية مع الوقت المخصص لها.

تتلخص وظيفة التمهيد غالبًا في تحبيب الدارسين في موضوع الدرس، وتشويقهم إلى سماعه، وتهيئة نفوسهم لتلقِّيه، ومتابعة عرض المدرس له.

ومن المفيد تنويع المدرس في هذه الخطوة بما يتناسب مع الموضوع الذي تناولتْه الآياتُ ومستوى المستفيدين من الدرس، ولعل من أنسب ما يمهد به لتفسير الآيات القرآنية ما يلي:

1- ذكر سبب النزول، والذي يوضح في الغالب مقصود الآيات، وييسِّر فهم معناها.

2- ذكر قصة لها تعلق بالآيات.

3- ذكر حادثة تاريخية أو قضية واقعية تناولت الآياتُ بعضَ جوانبها.

4- إثارة مشكلة حيوية عالجتْها الآيات.

5- توجيه سؤال ينشط الذهنَ ويحفزه على التفكير، بحيث يكون الجواب مرتبطًا بالآيات.

6- بيان المناسبة بين آيات الدرس والآيات التي تم شرحها في درس سابق.

7- الإشارة بإيجاز إلى موضوع الآيات[3].

الخطوة الثانية: قراءة الآيات:

ويحسن بالمدرس أن يراعي أثناء ذلك ما يلي:

1- أن يقرأ الآيات بخشوع وإجلال وتدبُّر.

2- أن يرتل التلاوة ويراعي أحكام التجويد.

3- أن يعيد تكرار قراءة الآيات، وبخاصة عند وجود كلمات غريبٍ معناها، أو صعب على المستمعين نطقها.

4- أن يحرص على الوقف على المواضع التي يحسن الوقف عليها في الآيات المقروءة؛ نظرًا لكون ذلك معينًا على الفهم.

5- أن يكلف بعض المجيدين بقراءة الآيات.

6- أن يوجِّه الطلبة إلى قراءة الآيات قراءة صامتة للتأمُّل في معانيها، ويمكنه أن يطلب منهم تكرار ذلك عدة مرات، وفي حال سَعة الوقت يمكنه أن يطلب من كل دارسٍ نقْلَ الآيات أو الكلمات التي لم يتضح له معناها إلى كراسته.

الخطوة الثالثة: تفسير الآيات:

ويمكن أن يتم ذلك من خلال ما يلي:

- شرح غريب الآيات:

[3] هذه مجرد أفكار عامة ومتنوعة، وعلى الداعية أن يترك التكلف في إيراد التمهيد، وأن يعلم بأن معنى الآية هو الذي يقوده إلى اختيار الأسلوب الأمثل لما يمهد به.

بحيث يقوم المدرس ببيان معاني المفردات الغريبة والكلمات الغامضة في الآيات، وتسجيل ذلك على لوحة الإيضاح.

وفي حال طول الآيات، فالأولى قيام المدرس بتقسيمها إلى أكثر من وحدة تعالج كلٌّ منها موضوعًا معينًا، وعندها فإن الأفضل القيام بشرح غريب كل وحدة على حدة.

وعلى المدرس أن يحرص على أن يكون الدارسون هم الذين يقومون بذِكر معاني المفردات؛ ليكون ذلك أعمقَ لفهمهم، وأدعى لتركيزهم وتدبرهم، وبإمكانه تنبيههم على أهمية عدم القيام بعزل المفردات عن الجمل والسياق الذي وردت فيه؛ لأن كثيرًا منها لا تفهم معانيها إلا من خلال ذلك.

- الشرح الإجمالي للآيات:

وفي هذه الخطوة على المدرس أن يراعي ما يلي:

* أن يتدرج في عرض المعاني والأفكار من الأسهل إلى الأصعب، ومن الأصعب إلى الأكثر منه صعوبة، ومن الطرح الكلي إلى الجزئي؛ لأن الانتقال من الكل إلى الجزء أسهلُ على عقل أغلب الدارسين من الانتقال من الجزء إلى الكل.

وعليه؛ فينبغي للمدرس أن يساعد الدارسين على إدراك الموضوع الذي تتحدَّث عنه الآيات إجمالاً، ثم يتدرج بهم إلى فهم المعنى الجزئي لكل آية على حدة، بدلاً من أن يقوم بالعكس من ذلك.

* في حال طول المقطع المفسَّر، أو اشتماله على أكثر من وحدة موضوعية، فالأفضل تقسيمه إلى أكثر من وحدة، بحيث تعالج كلٌّ منها موضوعًا معينًا، بحيث يطلب المدرس من الدارسين شرح المقطع آية آية، فيعتمد الصحيح من ذلك ويقوم بصياغته بجمل واضحة من عنده، وفي حال كون الآية الواحدة طويلة، فيمكن تقسيمها إلى فقرات والقيام بتفسيرها فقرةً فقرة كما تفسر الآيات، ومن ثم القيام بالربط بين المعاني الجزئية؛ ليتم الوصول في نهاية الدرس إلى المعنى الكلي الذي تم ذكرُه في أول الدرس.

* ينبغي للمدرس أثناء قيامه بتفسير الآيات أن يحرص على قضية الإقناع العقلي للدارسين في المعاني التي يوردها.

* ينبغي للمدرس - كما يسعى إلى استيعاب الدارسين للمادة التي تضمنتْها الآيات - أن يسعى إلى إكسابهم مهاراتِ التعلُّم الذاتي وقدراته، وأن يسعى في ثنايا الدرس إلى أن يقوم الدارس بتحمل عبء التعلم بنفسه، عن طريق طرح الأسئلة عليه، وتشجيعه على القيام بشرح الألفاظ، وتفسير الجمل، واستنباط الدروس والفوائد،

واستنتاج العلل والأحكام من الآيات المشروحة، تحت إشراف المدرس وتوجيهه؛ لأن نفْع ذلك أعظمُ، وأثرَه عليه أعمقُ وأدوم.

* على المدرس أثناء درس التفسير أن يثير العاطفةَ الدينية في نفوس الدارسين، ويستحثهم على تطبيق الآيات المشروحة في واقع حياتهم، وتجنُّب ما يخالفها من اعتقاد أو سلوك؛ لأن القرآن الكريم نزل في الأساس للتطبيق والعمل.

* ينبغي للداعية أن يتوقَّف عند بعض الجوانب التربوية والتوجيهات الدعوية التي تتضمنها الآيات وتناسب السامعين.

* ينبغي للداعية أن يُعنَى أثناء درس التفسير بتنويع أساليبه في العرض والإلقاء، وأن يحرص على إيراد ما يحفز الدارسين على مزيد انتباه وتركيز، ويدفعهم إلى تفاعُل أكثرَ، ويطرد عنهم الخمولَ والكسل، كإيراد قصة، أو شعر، أو موقف مؤثِّر... ونحو ذلك مما قد يكون له تعلُّق بالآيات.

* الاختلاف في التفسير بين السلف كثيرٌ، ولكن جلّه اختلاف تنوُّع مما يمكن أن تُحمل عليه الآيةُ بلا تعارض، كأنْ يَذكُر كلٌّ مفسِّر من الاسم العام أمثلةً له، فتكون كلها عائدة إلى معنى واحد، وكأن تفسَّر اللفظة الواحدة بألفاظ متقاربة، وكأن يذكر كل واحد وصفًا من أوصاف الشيء المفسَّر، فتكون كل الأقوال عائدةً إلى معنى واحد.

ويوجد في أحيانٍ اختلافُ تضاد بين أقوالهم، وهنا ينبغي للداعية أن يُعرِض عن الخلاف، ويقتصر أثناء عرضه للتفسير على إيراد الراجح بدليله، وبخاصة حين تكون الشريحة المستفيدة منه من عوام الأمة، أو من صغار طلبة العلم؛ بل ومتوسطيهم.

* المراد بالتفسير: بيان القرآن وإيضاح معانيه، فما كان من الأمور متوقفًا بيانُ الآية عليه، فهو من التفسير، وما فُهم المعنى بدونه، فهو من متمِّمات التفسير وعلومه.

والأَولى بالمدرس ألاَّ يستطرد في شيء من ذلك بدون وجود مقتضٍ له؛ لأن المكان اللائق بمثل ذلك هو العلوم الأخرى، لا علم التفسير.

* في حال تفسير المدرس لصدر سورة، ينبغي له الإشارةُ إلى مقاصدها، وأبرزِ موضوعاتها، وشيءٍ من سماتها وخصائصها، وما ورد في فضلها، ونحو ذلك مما يناسب ذكره حولها.

* من المهم أن يستعرض المدرس أثناء تفسيره للآيات بعضَ المصطلحات والقواعد التفسيرية، ويعرف بها بشكل تطبيقي من خلال التفسير، مثل: (أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، الإجماع في التفسير...).

* للتفسير طرقٌ صحيحة، فالواجب على من يتصدَّر لتفسير القرآن الكريم أن يتعرف عليها، ويهتم بها بحسب قوتها وأولويتها، وألاَّ يخرج تفسيره بحال عن إطارها[4].

* على المدرس أن يحذر من الخوض في التفسير بلا علم؛ وذلك لأن التفسير بيان لمراد الله - تعالى - بكلامه، وقد جعل الله - تعالى - ذلك في مرتبة أعظمَ من الشرك؛ كما في قوله - عز وجل -: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [الأعراف: 33]؛ ولذا تورَّع كثير من السلف من خوض غماره، ومن هؤلاء سعيد بن المسيب، الذي قال عنه يزيد بن أبي يزيد: "كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام - وكان أعلم الناس - فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن، سكت كأن لم يسمع"، وعروةُ بن الزبير، الذي قال عنه ابنه: "ما سمعت أبي يتأوَّل آية من كتاب الله قطُّ"، وكثيرٌ من كبار علماء المدينة والعراق كانوا كذلك[5].

---

[4] طرق التفسير المعتبرة ست، إليك إياها مرتَّبة:
- أن يفسر القرآن بالقرآن؛ وذلك لأن كل أحد أعلمُ بمراده من غيره، ولا يلزم من ذلك قَبول قول كل من قال: إن هذه الآية تفسير لتلك الآية؛ لأن ذلك اجتهاد منه، وقد لا يكون صحيحًا.
- تفسير القرآن بالسنة؛ لأن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هي بيان القرآن؛ كما قال - تعالى -: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44].
- تفسير القرآن بأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - لسلامة قصدهم، وحسن فهمهم، وكون القرآن نزل عليهم وبلغتهم، فعرفوا حاله وحال من نزل فيهم.
- تفسير القرآن بأقوال التابعين؛ لأنهم تلقَّوا عمن شاهد التنزيل، وعاشوا في عصر الاحتجاج اللغوي، فلم تفسد ألسنتهم بالعجمة، وكان لهم من سلامة القصد وحسنِ الفهم ما لهم.
- تفسير القرآن بلغة العرب؛ لأن القرآن نزل بها، وجاءت أساليبه على أساليبها؛ ولذا قال ابن عباس - رضي الله عنهما -: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله"، وقال مجاهد: "لا يحل لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله، إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب".
- تفسير القرآن الكريم بالرأي والاجتهاد المبنيِّ على علم أو غلبة ظن، لا على جهل أو هوى.

[5] غير خافٍ على طالب العلم أن التوقف عن تفسير القرآن من أولئك الأعلام كان في وقت يوجد فيه جهابذة من أهل العلم يُسقِطون عن الأمة واجبَ بيان القرآن وإيضاحه لعامة الأمة، أما في حال عدم وجود من يقوم بذلك، فإن كتمان العلم والتوقف عن تفسير القرآن ممن يقدر عليه، لا يقل في الشرِّ بحالٍ عن تفسيره بهوى أو جهل، والله أعلم.

* مُلئت أكثر كتب التفسير بالإسرائيليات، فيجب الحذر منها، ومن نسبتِها للنبي - صلى الله عليه وسلم – خاصة، وأهلِ العلم عامة؛ لما قد يفضي إليه ذلك من طعنٍ في الدِّين ونسبته للخرافة، وإفساد للعقائد، وصرف للناس عن الغرض الذي نزل القرآن من أجله، وزعزعة الثقة في آثار السلف وأقوالهم.

* كثير من الفهوم الخاطئة لنصوص القرآن الكريم أتتْ من جهل المتكلِّم في تفسير القرآن بمعاني اللغة العربية التي نزل القرآن على ألفاظها وأساليبها، قال ابن عباس: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذَر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله - تعالى ذكره"، وقد اشتدَّ نكير السلف على المتكلم في القرآن ممن لا يعرف العربية، فقال الإمام مالك - رحمه الله -: "لا أوتى برجلٍ يفسِّر كلام الله وهو لا يعرف لغة العرب، إلا جعلتُه نكالاً".

الخطوة الرابعة: ذكر ما يستفاد من الآيات من فوائد وأحكام[6]:

وعلى المدرس أثناء ذلك أن يراعي ما يلي:

1- أن يحرص على تعويد المستمعين على استنباط الأحكام واستخراج الفوائد والعِبر من الآيات.

2- أن يعطي أولوية للفوائد العملية والتربوية التي تضمنتها الآيات.

3- أن يطلب ممن يستنبط فائدة من الآيات أن يذكر الشاهد من الآيات عليها.

4- أن يقوم بكتابة الفوائد والأحكام على لوحة الإيضاح.

الخطوة الخامسة: قراءة الكتاب المفسر:

بعد انتهاء المدرس مع طلابه من استنباط الدروس والفوائد من الآيات، ينبغي له أن يقرأ مع الدارسين المادة التفسيرية في الكتاب المقرر؛ حتى يتجلَّى غريبُه، ويتَّضح غامضه، ويكون ذلك أدعى لارتباط الطلبة به، وفي حال ضيق الوقت، فلا أقل من قيام المدرس مسبقًا بتحديد المواضع التي فيها غموض أو إشكال، وقيامه مع الطلاب بقراءتها.

الخطوة السادسة: التقويم:

---

[6] تشجيع المدرس طلبتَه على الاستنباط ينمِّي لديهم ملكة التفكير والاستنباط من النصوص، ولكن من المهم بالنسبة للمدرس أن ينبِّه طلبته على أهمية ترك التكلف أثناء استنباط الفوائد واستخراج الدروس، والتأكيد عليهم بأن المرء قد لا يفتح له وجه استنباط من آية، كما عليه أن ينبههم إلى أن المقام مقام تعليم، وبالتالي فليس من العيب الوقوع في الخطأ؛ بل العيب في الإصرار عليه متى لاح للمرء الحقُّ وظهر.

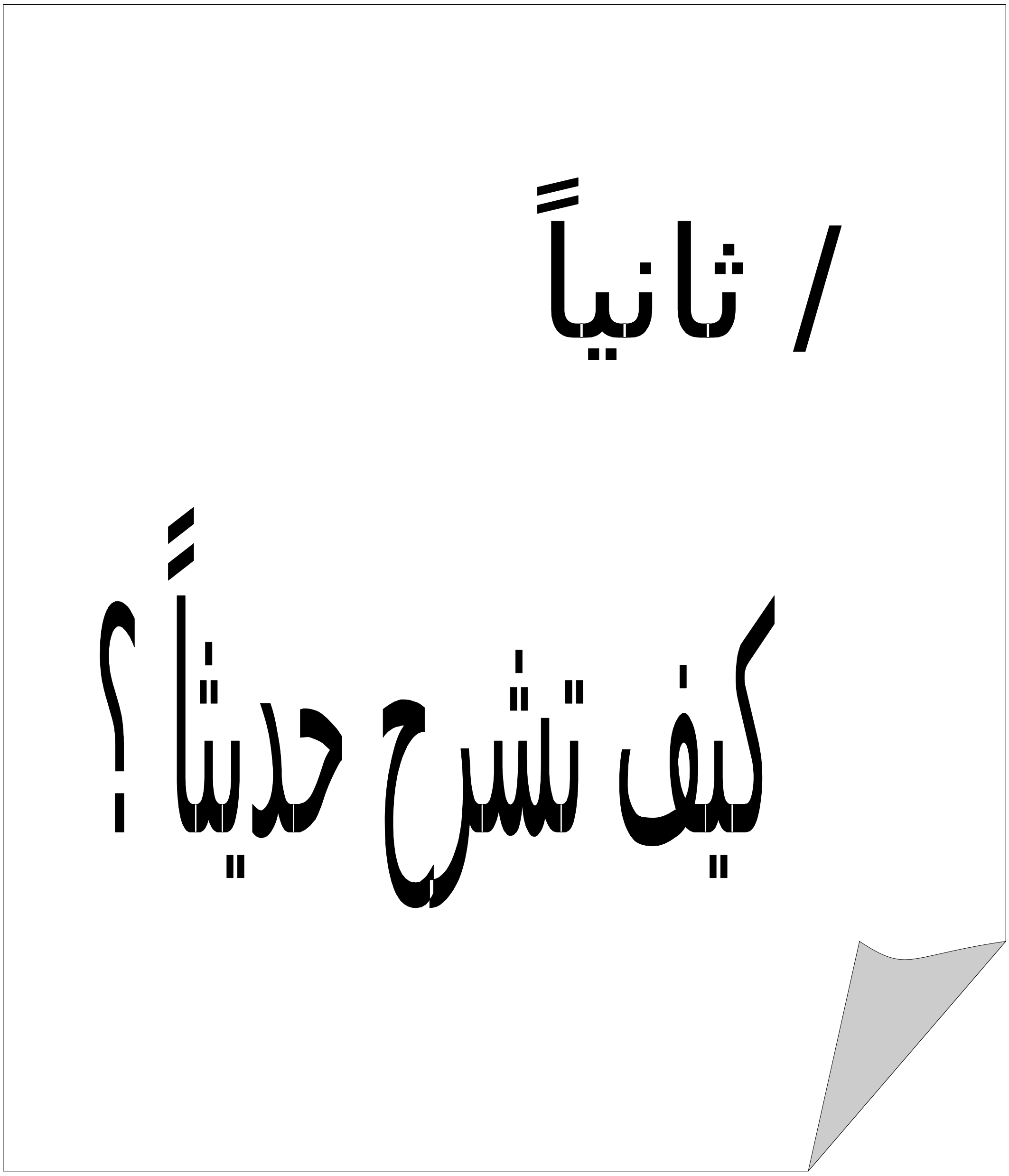
ويكون بمناقشة الدارسين وسؤالهم عن مضمون الدرس، ويمكنه أن يطلب منهم التعبيرَ عن فهمهم للآيات؛ حتى يتأكد من أنهم أحسنوا التلقي له والأخذ عنه.

الخطوة السابعة: حفز الطلبة للإعداد للدرس القادم:

عند انتهاء المدرس من درسه، عليه أن يحدد للدارسين الدرس القادم، ويطلب منهم قراءة الآيات وتفسيرها من الكتاب المقرر، ومن ثم تحديد ما أشكَل عليهم فهمُه؛ ليقوم بالتعاون معهم بإيضاحه في الدرس القادم.

كيف تشرح حديثًا؟

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى



آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإنه يحسن أن يتم شرح الحديث النبوي عبر الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: تحديد الأهداف التعليمية للدرس قبل إلقائه:

وذلك من أعظم الأمور المساعدة للمدرس على النجاح في التخطيط لدرسه، وإعداده، واختيار وسائله، وقياس نتائجه.

ويحسن بالمدرس أن يحرص على صياغة ذلك من خلال الوصف الفعلي للسلوك الذي يمكن أن يُحدِثه الطلاب بعد الدرس، بحيث تكون على الشكل التالي:

أن + الفعل المضارع (الذي يصف النشاط المراد تحققه من

الطالب) + الطالب + جزء من الدرس + الوقت الذي سيتم فيه الفعل، مثل: أن يقوم الطالب بتعداد شعب النفاق العملي بعد الدرس، وبعضهم يصوغها هكذا: أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على تعداد شعب النفاق العملي، وهما سيان[7].

الخطوة الثانية: التمهيد:

للتمهيد أثرٌ بالغ في فهم الحديث النبوي؛ ولذا فلا بد من العناية به حين القيام بشرح الحديث وتوضيح مراميه، والتمهيد يكون بما يناسب الهدفَ ويليق بالحال، ولعل من أنسب ما يمهَّد به لشرح الحديث النبوي ما يلي:

1- بذكر مشكلة أو أمر مناسب من البيئة يعالجها معنى الحديث.

2- بذكر سبب ورود الحديث، مثل أن يقوم من يشرح قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إن هذا المال خضرة حلوة، فمن

---

[7] المراد بالهدف التعليمي: قدرة الطالب على أداء سلوك معين إثر تعرضه لعملية تعليمية، فهو يصف ما يكتسبه الطالب ويفعله بعد الدرس.

والجوانب التي يمكن أن يرتبط بها سلوك الطالب ونشاطه بعد تعرضه لموقف تعليمي، ثلاثة:

1- الجانب المعرفي:

وتختص أهداف هذا الجانب بتطوير القدرات العقلية التي تستخدم المعرفة والمعلومات.

ومن أمثلتها:

- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على تعريف الصلاة في الشرع.
- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على المقارنة بين البيع والربا.
- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على شرح النفاق العملي.

2- الجانب الوجداني:

ويختص هذا النوع من الأهداف بتطوير القدرات الخاصة بالمشاعر والانفعالات، من ميولٍ، وعواطفَ، واتجاهات، وغيرها، وعليه فإن هذا الجانب من الأهداف يهتم بالقيم الدينية والإنسانية استقبالاً واستجابة، واتصافًا وتقويمًا.

ومن أمثلتها:

- أن يشعر الطالب بعد الدرس بالطمأنينة عند الصلاة وذكر الله - عز وجل.
- أن يسهم الطالب بعد الدرس في أمر الناس بالمعروف ونهيهم عن المنكر.
- أن يكون الطالب بعد الدرس عزم على امتثال أوامر الشرع والتوقف عند حدوده.

3- الجانب المهاري:

ويختص هذا النوع من الأهداف بتنمية القدرات التي تتميز بالحركة والأداء، كأداء الصلاة على الوجه الأكمل، وتتصف هذه الأهداف بسهولة الملاحظة والقياس غالبًا.

ومن أمثلتها:

- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على إخراج الحروف الهجائية من مخارجها الصحيحة.
- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على التورك في التشهد الأخير.
- أن يكون الطالب بعد الدرس قادرًا على السجود على سبعة أعظُم.

أخذه بسخاوة نفس، بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارَك له فيه))، بذكر سبب وروده، وقول النبي - صلى الله عليه وسلم - له، وذلك أن حكيم بن حزام - رضي الله عنه - سأل النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال له - صلى الله عليه وسلم -: ((يا حكيم، إن هذا المال...)).

3- بإيراد قصة مناسبة لمعنى الحديث؛ وذلك لأن القصة تشوِّق السامع للحديث الذي بعدها، وتُعِينه على التركيز ونشاط الذهن.

4- بذكر مثلٍ مناسب لمعنى الحديث؛ لما في المثل من إفهام للمقصود، وتثبيتٍ للمراد، وبعثٍ للتركيز والنشاط.

5- بتوجيه سؤال ينشِّط الذهنَ ويحفزه على التفكير، بحيث يكون الجواب مرتبطًا بالمادة المشروحة.

الخطوة الثالثة: قراءة الحديث:

وعلى المدرس أن يراعي أثناء ذلك ما يلي:

1- أن يقرأ الحديث بخشوع وإجلال.

2- أن يتأنى في قراءته ويتمهَّل تمهلاً يبين فيه الحروف والكلمات، بحيث يفهمه كل من سمعه.

3- أن يحرص على أن تكون قراءته خاليةً من الأخطاء اللُّغوية والنحْوية، وهذا يتطلب القراءة المسبقة للحديث، وبخاصة عندما يجد المدرس من نفسه ضعفًا في اللغة أو النحو.

4- إعادة الحديث المقروء وتَكراره، وبخاصة حين حدوث تشويش أو لغط، وحين وجود كلمة غامض معناها، أو صعب على المستمعين نطقها، فيمكن تكرارها وحدها.

5- أن يحرص على الوقف على المقاطع التي يحسن الوقف عليها[8]، ويمكنه أن يرفع صوته تارة، ويخفضه أخرى، بصورة تساعد الطلبةَ على الانتباه الجيد، والاستماع الحسن.

6- أن يكلِّف بعض المجيدين بقراءة الحديث، ويقوِّم ما قد يحدث لديهم من خطأ في نطق الكلمات أو ضبطها.

7- أن يوجِّه الطلبة إلى قراءة النص قراءة صامتة؛ للتأمل في معاني النص عدة مرات، وفي حال سعة الوقت يمكنه أن يطلب من كل طالب نسْخَ النص في كراسته أو تشكيله في نسخته.

الخطوة الرابعة: تخريج الحديث وبيان درجته باختصار[9].

الخطوة الخامسة: ترجمة راوي الحديث:

[8] لأجل ذلك ينبغي أن يحرص على النسخة الجيدة من الكتاب المضبوطة بالشكل، وفي حال ضعف المدرس في النحو وعدم وجود نسخة مضبوطة، فيمكنه الاستعانة بمُجيدٍ في النحو ليقوم بضبط ما يشكل عليه من النص.

وعلى المدرس حين يترجم للراوي، أن تتضمن ترجمتُه العناصرَ التالية إن كان المترجَم له صحابيًّا[10]:

- الاسم.
- الكنية.
- تاريخ إسلامه.
- بعض مناقب الراوي التي تميَّز بها عن غيره، وبخاصة تلك التي هي محل تأسٍّ وقدوة.
- أشهر تلميذين روَيَا عنه، أحدُهما مذكور في الإسناد؛ ليُعلم اتصاله.
- مدى إكثاره من الرواية أو عدم ذلك.
- وفاته زمانًا ومكانًا.

الخطوة السادسة: شرح الغريب:

بحيث يقوم المدرس ببيان معاني المفردات الغريبة والكلمات الغامضة[11]، وتسجيل ذلك على لوحة الإيضاح.

الخطوة السابعة: شرح معنى الحديث:

بحيث يبين المعاني التي يشتمل عليها الحديثُ ويقرر أحكامَه، وعليه أثناء ذلك أن يراعي ما يلي:

1- إيراد بعض شواهد الحديث.

2- بيان إن كان الحديث ناسخًا أو منسوخًا، أو عامًّا أو خاصًّا، أو مطلقًا أو مقيدًا، أو مجملاً أو مبينًا.

3- الجمع بين الحديث المشروح، وبين ما قد يوجد من أحاديث أخرى ظاهرُها التعارض معه.

---

[9] ذكرت هذه الخطوة هنا للتقرير والتقعيد، وإلا فإن أحاديث "عمدة الأحكام" قد جاوزت القنطرة؛ لأنها مختارة من أحاديث الصحيحين.

[10] أما إن كان الراوي المترجم له ليس بصحابي، فالمطلوب أن تتضمن الترجمة العناصر الستة التالية: 1- الاسم، 2- الكنية، 3- ذكر شيخين من أبرز شيوخه أحدهما مذكور في الإسناد؛ ليعلم اتصال السند، 4- ذكر تلميذين من أبرز تلامذته أحدهما مذكور في الإسناد؛ لترتفع جهالة العين عنه، وليعلم اتصال السند، 5- ذكر منزلته من حيث القبول والرد، 6- وفاته زمانًا ومكانًا.

[11] المفردات العربية ثلاثة أنواع: الأول: مفردات لا تتضح معانيها إلا بضمها إلى غيرها، وهي الحروف، وهذه يرجع لمعرفة معانيها إلى كتب المعاني، مثل: "مغني اللبيب" لابن هشام.

الثاني: مفردات تفيد المعنى بنفسها وهي مقترنة بزمن، وهي الأفعال بأنواعها الثلاثة: ماضٍ، ومضارع، وأمر.

الثالث: مفردات تفيد المعنى بنفسها مع عدم اقترانها بزمن، وهي الأسماء.

وهذان النوعان الأخيران يرجع لمعرفة معانيها إلى كتب غريب الحديث، مثل: "النهاية" لابن الأثير، وإلى كتب معاجم اللغة، مثل: "الصحاح" للجوهري، و"القاموس" للفيروز آبادي، و"لسان العرب" لابن منظور.

4- ألاَّ يطيل جدًّا في عرض المسائل وبيان الأحكام؛ حتى لا يتحوَّل درس الحديث إلى درس عقيدة أو فقه على سبيل المثال.

5- أن يقوم أثناء الشرح بالتأكيد على السامعين بأهمية العمل بالسُّنة ولزومها، وعليه حين يقوم بتقرير المسائل وبيان الأحكام أن يكون متجردًا، همُّه الوصول إلى الحق ومعرفة مراد الله ومراد رسوله - صلى الله عليه وسلم - غيرَ متعصبٍ لمذهب أو شخص؛ لأن ذلك يعمي صاحبَه، ويحُول بينه وبين الحق.

6- أن يذكر بعض الجوانب التربوية والتوجيهات الدعوية التي قد يتضمنها الحديث.

7- أن يحرص أثناء الشرح على إيراد ما يحفز المستمعين على مزيد انتباهٍ وتركيز، ويدفعهم إلى تفاعلٍ أكثر، ويطرد عنهم الخمولَ والكسل، كإيراد قصة، أو شعر، أو موقف مؤثِّر، ونحو ذلك مما له تعلق بالحديث.

8- أن يفتح باب الحوار، ويشجع المستمعين على السؤال، وينوِّع في أساليبه أثناء العرض والإلقاء.

الخطوة الثامنة: ذكر ما يستفاد من الحديث من فوائد وأحكام:

وعليه أثناء ذلك أن يراعي ما يلي:

1- أن يحرص على تعويد المستمعين على استنباط الأحكام واستخراج الفوائد من الحديث.

2- أن يطلب ممن يستنبط فائدة من الحديث أن يذكر الشاهد منه.

3- أن يحرص على إيراد الدارسين للفوائد العملية التي تضمنها الحديث.

4- أن يقوم بكتابة الفوائد والأحكام على لوحة الإيضاح.

الخطوة التاسعة: التقويم:

ويكون بمناقشة المستمعين وسؤالهم عن مضمون الدرس، بحيث يتأكد المدرس من جودة استيعابهم، وحسن فهمهم.

كيف تبحث مسألة فقهية؟

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى

ثالثاً /

كيف تبحث مسألة فقهية ؟

آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن لبحث مسألة فقهية بحثًا علميًّا عدةَ خطوات، أهمها:

أولاً: قبل البدء ببحث المسألة:

هناك العديد من الأمور التي لا بد لطالب العلم من مراعاتها قبل أن يقدم على البحث في مسألة فقهية، ولعل من أهمها:

1- تجريد النية:

التفقُّه في الدين من أجلِّ العبادات وأعظمِها؛ ولذا فتجريد النية وإخلاصها شرطٌ لقبول الله له من العبد، وقد استفاضت النصوص

التي جاءت ببيان ذلك وتجليته، ومنها: قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((من تعلَّم علمًا مما يُبتغى به وجه ُالله - عز وجل - لا يتعلَّمه إلا ليُصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة))؛ يعني: ريحها[12]، وقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه... ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرَّفه نِعَمه فعرَفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمتُ العلم وعلَّمتُه، وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنك تعلمتَ العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار))[13]، وقوله - صلى الله عليه وسلم -: ((لا تعلَّموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار))[14]، وفي رواية قال - صلى الله عليه وسلم -: ((من تعلَّم العلم ليباهي به العلماء، ويجاري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم))[15].

وعلاوة على أن الأجر على التعلم لا يُدرَك إلا بحسن النية، فإن للنية الحسنة أثرًا في إصابة الحق والاهتداء للصواب؛ إذ طلب العلم نوعٌ من استهداء الله - تعالى - وقد قال - عز وجل -: ((فاستهدوني أهدكم))[16]، هذا غير اللَّذة والمتعة الحاصلة للمتعلم والباحث المخلص لله - تعالى.

فانظر يا طالب العلم في نيتك، والأمر الذي تريده ببحثك، فإن كانت النية لربِّك خالصة، وكان مرادك الله والدار الآخرة، فامض في بحثك[17]، وإن كان في النية دَخَلٌ، فجرِّدها لله، واجعلها خالصة لوجهه - سبحانه - قبل أن تقدم على بحثك؛ فإن الله - تعالى - لا يقبل من العبد عملاً ليس خالصًا لوجهه - سبحانه - كما قال - تعالى - في الحديث القدسي: ((أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركتُه وشركَه))[18].

2- **الرغبة في الوصول إلى الحق:**

---

[12] "سنن أبي داود"، رقم: 3664، وصححه الألباني في "صحيح السنن"، رقم: 3112.

[13] "صحيح مسلم"، رقم: 1905.

[14] "سنن ابن ماجه"، رقم: 254، وصححه الألباني في "صحيح السنن"، رقم: 206.

[15] "سنن ابن ماجه"، رقم: 260، وحسنه الألباني في "صحيح السنن"، رقم: 209.

[16] "صحيح مسلم"، رقم: 2577.

[17] وتشمل النية الصالحة - مع التعبد لله بطلب العلم -: نية رفع الجهل عن نفسه، ونية تصحيح عبادته وطاعته، ونية نفع الناس وإفادتهم.

[18] "صحيح مسلم"، رقم: 2985.

من أعظم واجبات طالب العلم توطينُه لنفسه على الدوران مع الحق حيث دار، بحيث يبحث في النصوص الشرعية بهدف اتِّباعها وتحكيمها، والانقياد لها ظاهرًا وباطنًا، لا بهدف قيادتها ولَيِّ معانيها، بحيث يأتيها وقد حدد مسبقًا الحكمَ الذي يريد استخراجَه منها، وما أتى إليها إلا ليعضِّد قوله وينتصر لرأيه؛ ولذا تجده مبادرًا إلى قبول النصوص التي يراها موافقةً لهواه وإن كانت ضعيفةَ الثبوت أو الدلالة، وفي الوقت نفسه تراه مجتهدًا في ردِّ النصوص التي تعارض هواه مهما بلغتْ قوة في الثبوت والدلالة؛ لأنه ليس مقصده أن يفهم مراد الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - بل أن ينصر رأيه كيفما تَأَتَّى له وأمكن، قال ابن حزم: "ولا أرقَّ دينًا ممن يوثق رواية إذا وافقتْ هواه، ويوهنها إذا خالفتْ هواه، فما يتمسك فاعلُ هذا من الدين إلا بالتلاعب"[19].

وهذا - كما لا يخفى - عبادة للهوى، واتباعٌ لما تشتهيه الأنفس، يقول محمود شلتوت في كلام نفيس له ما نصه: "وقد يكون الناظر في الأدلة ممن تمتلكهم الأهواءُ، فتدفعه إلى تقرير الحكم الذي يحقق غرضه، ثم يأخذ في تلمُّس الدليل الذي يعتمد عليه ويجادل به، وهذا في الواقع يجعل الهوى أصلاً تُحمَل عليه الأدلة، ويحكم به على الأدلة، وهذا قلبٌ لقضية التشريع، وإفساد لغرض الشارع من نصب الأدلة"[20].

على أن من أعظم ما يعوق الباحثَ عن الوصول في بحثه إلى الحق التزامَه بمذهب معيَّن يسلِّم له بكل مسائله وترجيحاته، وقيامه بتقديم آراء أكابر مذهبه على النصوص الشرعية الثابتة، ومحاجته للآخرين بها، ومن الأمثلة الصارخة لهذا الزيغ قول الكرخي الحنفي - عفا الله عنه -: "كل آية تخالف ما عليه أصحابُنا فهي مؤولة أو منسوخة، وكل حديث كذلك فمؤولٌ أو منسوخ"[21]، ومعلوم أنه لا رأي لأحد مع النص الثابت، وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية زيغَ ذلك، فقال - رحمه الله تعالى -: "وليس لأحدٍ أن يحتجَّ بقول أحد في مسائل النزاع، وإنما الحجة: النص، والإجماع، ودليلٌ مستنبَط من ذلك تقرر مقدماته بالأدلة الشرعية، لا بأقوال بعض العلماء؛ فإن أقوال العلماء يُحتَج لها بالأدلة الشرعية، لا يحتج بها على الأدلة الشرعية، ومن تربَّى على مذهب قد تعوَّده واعتقد ما فيه - وهو لا يحسن الأدلة الشرعية وتنازع العلماء - لا يفرِّق بين ما

[19] "المحلى"، 4/ 180.

[20] "البدعة: أسبابها ومضارها"، لشلتوت، 24.

[21] "الرسالة في أصول الحنفية"، للكرخي - مطبوع مع "تأسيس النظر"، للدبوسي -: 169.

جاء عن الرسول وتلقتْه الأمة بالقبول، بحيث يجب الإيمان به، وبين ما قاله بعض العلماء ويتعسر أو يتعذر إقامة الحجة عليه، ومن كان لا يفرق بين هذا وهذا، لم يحسن أن يتكلم في العلم بكلام العلماء، وإنما هو من المقلدة الناقلين لأقوال غيرهم، مثل: المحدث عن غيره، والشاهد على غيره، لا يكون حاكمًا"[22]، وقال - رحمه الله -: "وليس لأحد أن ينصِّب للأمة شخصًا يدْعو إلى طريقته، يوالي عليها ويعادي، غير كلام الله ورسوله وما اجتمعتْ عليه الأمَّة؛ بل هذا من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادُون"[23].

فعلى من يحرص على الوصول للحق أن يتجرد في البحث، وأن يحذر اتباع الهوى، وإياه والتعصبَ والجمود؛ فإن عاقبة ذلك وخيمة دنيا وأخرى.

3- البحث عن العلم الذي يعمل به:

بالبحث الدؤوب، والقراءة المتواصلة، والسؤال عما أشكل، تزداد معرفةُ العبد، ويتجلى له الحق.

ولكن المعرفة ذاتها ليستْ بغاية في ذاتها يسعى إليها العبد؛ بل هي وسيلة للاعتقاد الحسن، والفعل الصائب، وطريق لمهابة الله وخشيته وخوف عقابه.

وقد كان ذلك منهجَ السلف الصالح، وقد استفاضت الآثار عنهم في الدلالة على ذلك، وبيان أن العلم النافع هو ذلك الذي يقود صاحبَه للخشية، ويدفعه للعمل، ومنها:

قول أبي بن كعب - رضي الله عنه -: "تعلموا العلم واعملوا به، ولا تتعلموه لتتجملوا به؛ فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يُتَجَمَّل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه"[24]، وقول ابن مسعود - رضي الله عنه -: "يا أيها الناس، تعلموا، فمن علم فليعمل"[25]، وقول أبي الدرداء - رضي الله عنه -: "إن من أشر الناس عند الله منزلةً يوم

---

[22] "مجموع الفتاوى"، لابن تيمية، 26/ 202 - 203، وليس مراده - رحمه الله - تنقص أحد من أهل العلم؛ وإنما التحذير من زلاَّتهم؛ ولذا نجده - رحمه الله تعالى - يقول - كما في "الفتاوى الكبرى"، 2/ 23 -: "وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم أهله"، ونجده - رحمه الله - يقول - كما في "الفتاوى الكبرى"، 3/ 178 -: "دين الإسلام إنما يتم بأمرين: أحدهما: معرفة فضل الأئمة وحقوقهم ومقاديرهم، وترك كل ما يجر إلى ثلمهم، والثاني: النصيحة لله - سبحانه - ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وإبانة ما أنزل الله - سبحانه - من البينات والهدى".

[23] "مجموع الفتاوى"، لابن تيمية، 20/ 164.

[24] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبدالبر، 1/ 693، رقم: 1226.

[25] "العلم"، لأبي خيثمة، 6.

القيامة عالمًا لا ينتفع بعلمه"[26]، وقول الحسن البصري: "إنما الفقيه: العالم في دينه، الزاهد في دنياه، الدائم على عبادة ربه"[27]، وقول الفُضيل: "من أوتي علمًا لا يزداد فيه خوفًا وحزنًا وبكاء، خليق بألاَّ يكون أوتي علمًا، ثم قرأ: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} [النجم: 59، 60]"[28]، وقال التيمي: "من أوتي من العلم ما لا يبكيه، خليق ألاَّ يكون أوتي علمًا ينفعه؛ لأن الله نَعَتَ العلماء، ثم قرأ: {إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} [الإسراء: 107 - 109]"[29]، وقد تجاوز السلف في ذلك مجرد الحث والدعوة إلى التطبيق، كما قال الحسن البصري: "قد كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشُّعه وهديه، ولسانه وبصره وبرِّه"[30]، وكما قال مالك: "أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل"[31].

فيا من فاق كثيرًا من الناس بعلمه، ما أجدر بك أن تفوقهم بعملك! واعلم بأن العالم من وافق علمه عمله، واحرص إذا أحدث الله لك علمًا أن تُحدِث له به عبادة وعملاً.

وإن من أعظم الأمور المُعِينة لك على ذلك: أن تُعرِض عن البحث في المسائل النظرية التي لا يترتب عليها كبير فائدة أو عمل[32]، وأن تترك المراء فيما تبحث؛ لأنه يقسِّي القلب، ويزرع الشحناء، ويورث الضغائن، قال الحسن البصري - حين رأى قومًا يتجادلون -: "هؤلاء قوم ملُّوا العبادة، وخفَّ عليهم القول، وقلَّ ورعهم، فتكلَّموا"[33]، وأن تتذكر أن العمر قصير محدود، فلا تجعله يذهب عليك سُدًى فيما لا ينفع.

4- امتلاك القدرة على البحث:

لا بد للشخص الذي يريد الإقدام على بحث مسألة من أن يكون قادرًا على ذلك، ولعل من أهم ما يجب توفره فيمن يريد بحث مسألة فقهية، ما يلي:

أ- معرفة اللغة العربية وفنون القول فيها[34].

ب- معرفة المسائل الهامة في أصول الفقه، وأهمها:

---

[26] "سنن الدارمي"، رقم: 262.
[27] "شعب الإيمان"، للبيهقي، 2/ 296، رقم: 1834.
[28] "شعب الإيمان"، للبيهقي، 2/ 291، رقم: 1811.
[29] "المصنف"، لابن أبي شيبة، رقم: 35360.
[30] "الزهد"، لابن أبي عاصم، 1/ 285.
[31] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبدالبر، 1/ 697، رقم: 1235.
[32] ومن ذلك: الإغراق في التعريفات وبحث المسائل التي يندر وقوعها.
[33] "فضل علم السلف"، لابن رجب، 51 - 52.

- الأدلة الشرعية ومراتبها.
- الحكم الشرعي وأقسامه.
- دلالات الألفاظ وطرق الاستنباط.
- الناسخ والمنسوخ.
- التعارض والترجيح.
- ترتيب الأدلة.
- مقاصد التشريع.

ج- جمع الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع البحث.

د- القدرة على معرفة صحة الأحاديث من ضعفها، سواء أكان ذلك بتخريجها ودراسة أسانيدها، أم بالقدرة على مراجعة كلام أهل العلم فيها.

هـ- الاطلاع على تفسير الآيات المتعلقة بالبحث من كتب التفاسير المعتمدة، وبخاصة من كتب تفاسير آيات الأحكام.

و- الاطلاع على شروح الأحاديث المتعلقة بالبحث، وبخاصة من تلك الكتب التي عنيت بشرح أحاديث الأحكام.

ز- معرفة أهم الكتب الفقهية المعتمدة في كل مذهب، والمدونات الفقهية غير المذهبية والتي حرصت على مراعاة الدليل.

ح- العناية بمعرفة مذاهب الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين، وأئمة الفقه المتقدمين.

ط- الأناة وعدم العجلة، والصبر على مشاق البحث وتجاوز صعابه.

ي- التفرغ الذهني عند القيام بجمع معلومات البحث وتمحيص مسائله ودراستها.

ك- وجود رغبة جادة، ودوافع قوية في موضوع البحث.

ل- لا بد لمن كان مبتدئًا في البحث من أن يكون له شيخ متمرس يرعاه ويشرف عليه.

5- الاستعانة بالله واللجوء إليه:

يشغل كثيرًا من العباد صورةُ العمل وحسن القصد عن الاستعانة بالله - تعالى - وإظهار الافتقار والحاجة إليه[35]، وهذا خطأ فاحش؛ إذ

[34] ويشمل ذلك: معرفة غريب اللغة، ودلالات الألفاظ، ومعرفة الإعراب؛ إذ به يختلف المعنى، ومعرفة البلاغة والحقيقة والمجاز.

[35] يقسم ابن القيم في "مدارج السالكين"، 1/ـ 99، أحوال الناس في العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام: القسم الأول: من جمع عبادة واستعانة، وهذا أجل الأقسام وأفضلها، الثاني: المعرضون عن العبادة والاستعانة، وهو أسوأ الأقسام وشرها، الثالث: من ليس له عبادة وله استعانة بالله على حظوظه وشهواته، ومن كانت هذه حاله فأسعف بحاجته وقضيت له، فإن ذلك لا يعني علو مرتبته، ومحبة المولى له، وأنه من أولياء الله المقربين، الرابع: من له نوع عبادة بلا استعانة، وهذا

أجمع العالمون بالله - تعالى - على أن كل خير يحصل للعبد فأصلُه بتوفيق الله له، وما استُجلب التوفيقُ بمثل المبالغة في الدعاء والمسألة وطلب المعونة، والاستكثار من إظهار الافتقار ومسيس الحاجة، ولا فات إلا بإهمال ذلك[36]، وقد كانت تلك طريقةَ النبي - صلى الله عليه وسلم - والهدي الذي سار عليه، فها هو - صلى الله عليه وسلم - كان يستفتح صلاة الليل داعيًا: ((اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم))[37]، وكان من دعائه - صلى الله عليه وسلم -: ((اللهم إني أعوذ بك أن أَضل أو أُضل، أو أَزل أو أُزل))[38]، ولم يكتفِ بدعائه؛ بل كان يوجِّه أصحابه إلى ذلك قائلاً: ((سلوا الله علمًا نافعًا، وتعوَّذوا بالله من علم لا ينفع))[39].

وقد كان هذا ديدنًا للسلف وهديًا لهم، ولعل من أجلى صور استعانتهم بالله على التعلُّم والوصول للحق عبر البحث والمطالعة، ما حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية عن نفسه، فقال: "ربما طالعت على الآية الواحدة نحو مائة تفسير، ثم أسأل اللهَ الفهمَ، وأقول: يا معلِّم آدم وإبراهيم، علِّمني، وكنت أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرغ وجهي في التراب، وأسأل الله - تعالى - وأقول: يا معلم إبراهيم، فهمني"[40].

وكثرة العلوم والمراجع بين يدي الباحث لا تنفعه إذا لم يُعِنْه الله - سبحانه وتعالى - على الوصول إلى الحق، قال ابن تيمية: "وقد أوعبتِ الأمة في كل فن من فنون العلم إيعابًا، فمن نوَّر الله قلبه هداه بما يبلغه من ذلك، ومن أعماه لم تزدْه كثرةُ الكتب إلا حيرة وضلالاً"[41].

يكثر في الصالحين، قال ابن القيم: "فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير، بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز، بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم، ولو توكل العبد على الله حقَّ توكله في إزالة جبل عن مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله".

[36] انظر: "الفوائد"، لابن القيم، 97.

[37] "صحيح مسلم"، رقم: 770.

[38] "سنن أبي داود"، رقم: 5094، وصححه الألباني في "صحيح السنن"، رقم: 4248.

[39] "سنن ابن ماجه"، رقم: 3843، وصححه الألباني في "صحيح السنن"، رقم: 3100.

[40] "العقود الدرية"، 26.

[41] "الفتاوى"، 10/ 665.

فأكثِرْ - يا طالب العلم - من دعاء الله والتضرع بين يديه، وسؤاله العون والتسديد، وإياك أن يكون نصيبك الخذلان من هذا السبيل.

ثانيًا: خطوات البحث:

لكي يتم بحث مسألة فقهية بحثًا جادًّا؛ لا بد من سلوك الخطوات التالية:

الخطوة الأولى: جمع مصادر البحث الأساسية:

وفي هذا الجانب يحسن التنبيه على الأمور التالية:

1- تكاد أن تكون المصادر الأساسية لبحث مسألة فقهية ما يلي:

- الآيات القرآنية المتعلِّقة بالمسألة محل البحث، وتفسيرها من كتب التفاسير المعتمدة، وبخاصة تلك الكتب التي عنيت بتفسير آيات الأحكام[42].

- الأحاديث النبوية المتعلقة بالمسألة محل البحث وشروحها، وبخاصة تلك الشروح التي عنيت بشرح أحاديث الأحكام[43].

---

[42] لعل من أهم كتب التفسير التي عنيت بالأحكام: "أحكام القرآن" للجصاص الحنفي، "أحكام القرآن" لابن العربي المالكي، "أحكام القرآن" للهراس الشافعي، "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، "أضواء البيان" للشنقيطي.
على أن كتب التفسير المطولة لا تخلو من ذكر للأحكام، كـ"جامع البيان" للطبري، و"المحرر الوجيز" لابن عطية، و"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، و"البحر المحيط" لأبي حيان.

[43] لعل من أهم الشروح الحديثية التي اختصت بشرح أحاديث الأحكام: شروح "عمدة الأحكام" للمقدسي، ومن أهم ما طبع منها: "إحكام الأحكام" لابن دقيق العيد، "الإعلام" لابن الملقن، "العدة للصنعاني".
ومنها: "طرح التثريب في شرح التقريب" للعراقي، "سبل السلام" للصنعاني، "نيل الأوطار" للشوكاني.
وتعد الشروح الحديثية المطولة من أهم مصادر الفقيه، ولعل من أبرزها:
شروح صحيح البخاري، وأهمها: "فتح الباري" لابن حجر، "عمدة القاري" للعيني، "إرشاد الساري" للقسطلاني.
ومنها: شروح مسلم، ومن أهمها: "المعلم" للمازري، والكتب التي أكملته كـ: "إكمال المعلم" لعياض، و"إكمال إكمال المعلم" للأبي، "مكمل إكمال الإكمال" للسنوسي، ومنها: "المنهاج" للنووي، و"المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم" لأبي العباس القرطبي.
ومنها: شروح السنن الأربع، ومن أهمها: "عون المعبود شرح سنن أبي داود" للعظيم أبادي، "بذل المجهود في حل أبي داود" خليل السارنغوري، "عارضة الأحوذي شرح سنن الترمذي" لابن العربي، "تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي" للمباركفوري.
ومنها: شروح الموطأ والكتب التي خدمته، ومن أهمها: "التمهيد" و"الاستذكار" لابن عبدالبر، "المنتقى" للباجي، شرح الزرقاني.
ومنها: "شرح السنة" للبغوي، "فيض القدير" للمناوي.

ولا بد للباحث في الأحكام من معرفة صحة الحديث من ضعفه؛ حتى يتمكن من البناء عليه؛ ولذا فلا بد له من الرجوع إلى الكتب التي اهتمتْ بتخريج الأحاديث وبيان مدى صحتها من ضعفها[44].

- الكتب التي عني أصحابها بتدوين الإجماع في المسائل الفقهية[45].

- الكتب التي عني أصحابها بذكر فتاوى الصحابة وأئمة التابعين[46].

- الكتب المعتمدة في كل مذهب من المذاهب الأربعة، مع العناية بتحرير أقوال الأربعة أنفسهم، وأقوال أتباعهم[47].

- الكتب التي عني أصحابها بجمع اجتهادات بعض أئمة الفقه، مثل "موسوعة فقه الإمام الثوري"، و"موسوعة فقه الإمام الأوزاعي" ونحوهما.

- الكتب والدراسات الفقهية التي اعتنتْ بإيراد الخلاف وعرض أدلة الأقوال المختلفة[48].

---

[44] لعل من أهم الكتب المفيدة في هذا الباب: "نصب الراية" للزيلعي، "التلخيص الحبير" لابن حجر، "الجامع الصغير" للسيوطي، كتب الألباني، ومن أهمها: "إرواء الغليل"، والسلسلتين الصحيحة والضعيفة، "صحيح الجامع وضعيفه"، صحيح وضعيف السنن الأربع.

[45] من أهم كتب الإجماع المتداولة: "الإجماع" لابن المنذر، "مراتب الإجماع" لابن حزم مع نقده لابن تيمية، "موسوعة الإجماع في الفقه الإسلامي" لسعدي أبو حبيب، "إجماعات ابن عبدالبر في العبادات"، "موسوعة الإجماع لابن تيمية" كلاهما للبوصي، ومن أهم من عني بتدوين الإجماع من الأئمة في كتبه: ابن عبدالبر، وابن المنذر، والنووي، وابن هبيرة.

[46] ومن أهمها: "مصنف عبدالرزاق"، "مصنف ابن أبي شيبة"، "السنن الكبرى" للبيهقي، "الأوسط" لابن المنذر، "المحلى" لابن حزم.

[47] الكتب الفقهية المدونة في كل مذهب من المذاهب الأربعة كثيرة، والمتوافق منها مع ما استقر عليه المذهب ليس بالقليل؛ ولذا فحصرها مما يعسر، ولكن لعل من أهمها:

- بالنسبة للمذهب الحنفي: "شرح معاني الآثار" للطحاوي، "المبسوط" للسرخسي، "البحر الرائق" لابن نجيم، "فتح القدير" لابن الهمام، "تبيين الحقائق" للزيلعي، "البناية" للعيني.
- بالنسبة للمذهب المالكي: "الكافي" لابن عبدالبر، "المدونة الكبرى"، "الرسالة" لابن أبي زيد وشروحها كـ"الثمر الداني"، "مختصر خليل" وشروحه كـ"شرح الدردير وحاشية الدسوقي عليه"، "الذخيرة" للقرافي.
- بالنسبة للمذهب الشافعي: "المنهاج" للنووي وشروحه كـ"مغني المحتاج" و"نهاية المحتاج"، "المهذب" للشيرازي وشروحه كـ"المجموع" للنووي وتكملته للسبكي، "متن أبي شجاع" وشروحه كـ"الإقناع" للشربيني.
- بالنسبة للمذهب الحنبلي: "المغني" لابن قدامة، "شرح الزركشي على مختصر الخرقي"، "المبدع" لابن مفلح، "الإنصاف" للمرداوي، "كشاف القناع" و"الروض المربع" لمنصور البهوتي.

- الكتب والدراسات الفقهية التي حرص أصحابها على اعتماد الدليل من دون الالتزام بأصول مذهب من المذاهب المعتبرة[49].
- كتب الفتاوى[50].
- الكتب الفقهية المصنفة في أبواب، أو موضوعات، أو مسائل فقهية خاصة[51].

2- إدراك طبيعة المصنفات الفقهية وخصائصها، وأنها ليست سواء من حيث ذكر الخلاف، وإيراد الأدلة والترجيح:
ففي ذكر الخلاف: منها ما لا يذكر خلافًا؛ بل يقتصر على إيراد ما عليه المذهب، ومنها ما يورد خلافًا؛ لكنه يقتصر على إيراد الخلاف داخل المذهب، ومنها ما يتجاوز ذلك إلى ذِكر الخلاف مع المذاهب الأخرى.

وفي إيراد الأدلة: منها ما لا يورد الأدلة، ومنها ما يوردها، والكتب التي تورد الأدلة منها ما يناقش الأدلة الأخرى، ومنها ما لا يناقشها.

وفي الترجيح: منها ما يقتصر على إيراد ما يراه راجحًا فقط، ومنها ما يورد الأقوال ولا يرجِّح بينها، ومنها ما يورد الأقوال ويرجح بينها.

3- تختلف المصنفات الفقهية من حيث الشكل اختلافًا بيِّنًا؛ إذ منها:

---

[48] لعل من أهم المصنفات التي تخدم الباحث في هذا الجانب: "الأم" للشافعي، "الأوسط" لابن المنذر، "الاستذكار" لابن عبدالبر، "المغني" لابن قدامة، "المجموع" للنووي، "الذخيرة" للقرافي، "المبسوط" للسرخسي، "فتح القدير" لابن الهمام، "الروضة الندية" لصديق خان، ومن الدراسات الحديثة: "الفقه الإسلامي وأدلته" للزحيلي، "الشرح الممتع" لابن عثيمين.

[49] لعل من أهم ما يخدم الباحث في هذا الجانب: الجهود الفقهية لشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وجهود العلامتين الصنعاني والشوكاني، والجهود الفقهية لبعض أهل العلم المعاصرين كالعلامة الشنقيطي وابن سعدي وابن عثيمين، وبعض الرسائل الجامعية الجادة المتعلقة ببعض الموضوعات والمسائل الفقهية كـ"اختيارات ابن قدامة الفقهية" لـ.د. علي الغامدي.

[50] دونت فتاوى كثير من العلماء، وتعد الجوانب الفقهية من أكثر ما تم تناوله فيها، ولعل من أشهرها: "مجموع فتاوى ابن تيمية"، و"الفتاوى المصرية" و"الفتاوى الكبرى" له، "فتاوى النووي"، "فتاوى ابن الصلاح"، "فتاوى الشاطبي"، "فتاوى ابن حجر الهيثمي"، "فتاوى السبكي"، "فتاوى ابن رشد"، "الفتاوى الهندية"، "المعيار المعرب" للونشريسي، "فتاوى اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية".

[51] من الكتب الفقهية التي دونها أصحابها في موضوعات ومسائل خاصة: "الخراج" لأبي يوسف، "تحريم النرد والشطرنج والملاهي" للآجري، "الفروسية" لابن القيم، "فصول الأحكام" للباجي، كثير من البحوث والدراسات الجامعية التي اتجهت بقوة نحو هذا الأمر.

- المطولات: وهي التي اهتم أصحابها فيها ابتداءً بإيراد المسائل الفقهية بنوع من البسط.
- المتون والمختصرات: وهي التي اختصر أصحابها فيها كتبًا مطولة، أو ألّفها أصحابها ابتداء بطريقة مختصرة.
- الشروح: وهي التي قام أصحابها فيها بتناول كتب أخرى بالشرح والإيضاح.
- الحواشي: وهي التي علق أصحابها فيها على مواضعَ من شروح المختصرات؛ بهدف التأييد، أو الاعتراض، أو الإيضاح.
- المنظومات الفقهية: وهي التي نظم أصحابها فيها مسائل بعض المتون الفقهية، أو شيئًا من مسائل الفقه دون الارتباط بكتاب.

4- تختلف طريقة المصنفات الفقهية في ترتيب الكتب والأبواب داخلها من مذهب إلى آخر، كما أن المصنفات الفقهية داخل المذهب الواحد تختلف أيضًا؛ نظرًا لتطور الترتيب الفقهي للكتب والأبواب زمنًا بعد آخر، وما لم يدرك الباحثُ هذا الأمرَ بصورة جيدة فقد يضل الطريق في الوصول إلى المعلومة[52].

5- يعد "المحلى" لابن حزم من أهم الكتب الفقهية التي اعتنتْ بالدليل وأوْلتْه عنايتها، وناقشتْ أدلة الأقوال الأخرى، وبيَّنتْ ضعف أوجه الاستدلال بها من وجهة نظر ابن حزم، وسيفيد الباحث أيما فائدة في هذا الجانب، لكن الباحث المبتدئ لا يُنصح أبدًا بالرجوع إليه للأسباب التالية:
- ظاهرية ابن حزم المفرطة في فهم النصوص والتعامل معها في الفروع خاصة[53].
- ضعف لغتُه الفقهية، وميله إلى الجزم بالأقوال التي يقول بها، مع أن كثيرًا من الاختلافات معتبرة، والأمر لا يعدو أن يكون صحيحًا وأصح، أو ظاهرًا وأظهر، وإن تجاوز الأمر ذلك فراجحًا وأرجح.
- تطاوله في أحيان كثيرة على أهل العلم الذين يناقش أقوالهم بعبارات قاسية، وفي أحيان قد تكون نابية[54].

---

[52] راجع في الموضوع: "ترتيب الموضوعات الفقهية ومناسباته في المذاهب الأربعة" لـ.د. عبدالوهاب أبو سليمان، وقد قام عبدالله آل سيف بوضع فهرست لمواضع الكتب والأبواب في أهم المصادر الفقهية في المذاهب الأربعة بعنوان: "اللباب في الدلالة على مواضع الكتب والأبواب".

[53] يقول ابن كثير في "البداية"، 15/ 796، مجليًا ذلك: "والعجب كل العجب أنه كان ظاهريًّا في الفروع، لا يقول بشيء من الأقيسة، لا الجلية ولا غيرها، وهذا الذي وضعه عند العلماء، وأدخل عليه خطأ كبيرًا في نظره وتصرفه، وكان مع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول؛ لأنه كان قد تضلع أولاً من علم المنطق".

[54] قال الذهبي في "السير"، 18/ 186، مبينًا حاله في ذلك: "فإنه رأس في علوم الإسلام، متبحِّر في النقل، عديم النظير على يبس فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا

6- أهمية الاستفادة من البرامج الشرعية على أجهزة الحاسوب في البحث؛ نظرًا لتقريبها للباحث كثيرًا من المعلومات التي يحتاجها، مع التنبه لما يقع فيها من تصحيفٍ أو سقط.

7- المصادر التي يمكن أن تخدم الباحث في المسائل الفقهية عديدةٌ وكثيرة، ورجوعُه إلى جميعها في كل مسألة من مسائل بحثه قد يعوقه عن إتمامه؛ ولذا فمن المستحسن أن يقوم الباحث بتقسيم المسائل إلى نوعين:

النوع الأول: مسائل أشبعها أهل العلم بحثًا، وهذه يحسن بالباحث الرجوع فيها إلى المصادر التي عُرفت بالتحقيق وحسن المناقشة والعرض للأقوال وأدلتها، بالإضافة إلى مصدر أو مصدرين من الكتب المعتمدة في كل مذهب من المذاهب الفقهية المعتبرة؛ لتوثيق النسبة، ومعرفة القول المختار في المذهب، وأدلته، وأوجه ترجيحه، والطريقة التي تمت بها مناقشة الأقوال الأخرى.

النوع الثاني: مسائل لم تُبحث بعدُ، أو بحثت ولكن ما تزال محتاجة إلى مزيد تمحيص ونظر، مثل مسائل النوازل الفقهية، وهذه لا بد فيها من محاولة استقصاء جميع ما كتب حولها، والاستفادة منها بقدر الإمكان[55].

8- من الأهمية بمكان حين المطالعة في المصادر الفقهية المختلفة مراعاةُ وجود مصطلحات حرفية وكلمية خاصة بكل مذهب، تشير في أحيان إلى بعض أئمة المذهب، أو كتبهم، أو المذاهب والآراء، أو الاختيار والترجيح، وفي أحيان لا تكون تلك المصطلحات عامة في كل كتب المذهب؛ بل ربما كانت خاصة بكتابٍ دون غيره.

الخطوة الثانية: تحديد مسألة البحث:

وهنا يحسن التنبيه على الأمور التالية:

- أن كثيرًا من النتائج غير الصحيحة التي يصل إليها طالب العلم في بحثه، تعود إلى عدم تصور المسألة المبحوثة وتحديدها بدقة.

- الخطوات المقترحة للوصول إلى تحديد دقيق للمسألة هي:

الأصول... وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدَّب مع الأئمة في الخطاب؛ بل فجج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء، وفتشوها انتقادًا واستفادة، وأخذًا ومؤاخذة، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجًا في الرَّصْف بالخرز المهين، فتارة يطربون، ومرة يعجبون، ومن تفرده يهزؤون، وفي الجملة فالكمال عزيز، وكلُّ أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم".

[55] من المفيد الاستفادة من بحوث المجامع الفقهية، مثل مجمع الفقه الإسلامي بمكة المكرمة، والكتب المؤلفة لدراسة بعض النوازل، مثل: "فقه النوازل" لبكر أبو زيد.

أ- القراءة في الموضوع بغرض تصور المسألة وتحديد جوانبها، لا الوصول إلى حكمٍ محدد حيالها.
ب- تحرير محلِّ النزاع عن طريق:
* تحديد الجوانب المتفق عليها في المسألة بين أهل العلم.
* تحديد الجوانب المختلف فيها في المسألة بين أهل العلم، وبيان سبب ذلك.

الخطوة الثالثة: جمع المادة العلمية ودراستها:

وهنا يحسن التنبيه على الأمور التالية:
- ينبغي التفريق بين حالتين من حالات البحث:
الأولى: حالة كون المسألة المبحوثة واحدة، وهذه لا إشكال فيها؛ لأن الباحث سيعمد إلى جمع المادة العلمية المتعلقة بها، ومن ثمَّ دراستها وتمحيصها، ومن ثمَّ صياغتها.
الثانية: حالة كون البحث يتناول أكثر من مسألة، وهنا يوجد أمام الباحث خياران:
أ- جمع كل ما يتعلق بكل مسألة على حدة، ومن ثم دراستها وتمحيصها والانتهاء من صياغتها، وبعد ذلك يتم الانتقال إلى المسألة الأخرى جمعًا ودراسة وصياغة، وهكذا.
ب- جمع كل ما يتعلق بمسائل البحث في كل مصدر وتدوينها في أوراق أو بطاقات، بحيث لا يتم الرجوع إلى ذلك المصدر مرة أخرى، ومن ثم الانتقال بعد ذلك إلى مصدر آخر وجمع مادة البحث الموجودة فيه وتدوينها كما سبق، وهكذا يفعل مع المصادر الأخرى إلى أن تنتهي، ومن ثم يتم تصنيف المادة العلمية المدونة في الأوراق أو البطاقات حسب مسائل البحث، ثم يتم دراسة وتمحيص وصياغة كل مسألة من مسائله على حدة، وبعد الانتهاء منها يتم الانتقال إلى المسألة الأخرى، وهكذا.
- لا ينبغي لطالب العلم أن يلجأ في بحثه إلى تشقيق المسائل تشقيقًا مخلاًّ، وعلى ذلك فينبغي له أن يُعرض عما قد يجد في المسألة محل البحث من أقوالٍ متهالكة ليس عليها أثارةٌ من علم، إلا على سبيل التنبيه عليها، وتحذير الآخرين من الاغترار بها.
- تكثر الرموز والمصطلحات الفقهية في غالب المصادر والمراجع الفقهية، كما أن كثيرًا من المدونات الفقهية حرصتْ على الإيجاز حرصًا جعلها تقرب من الإلغاز، وهذا مما يزيد من عبء الباحث، ويعظم من مسؤوليته في تفهم أقوال الفقهاء، ومرامي عباراتهم، وأوجه استدلالاتهم بالنصوص.

- أثناء قيام الباحث بدراسة المسألة وتمحيصها لا بد من احترازه من مسلكين معيبين في الدراسات الفقهية:

الأول: مسلك من يهتم بتحرير المسألة وذكر تفريعاتها نقلاً عن كتب الفقهاء، دون أن يعتني بإيراد الأدلة، والتأكد من مدى ثبوتها وصحة دلالتها على المسألة.

الثاني: مسلك من يهتم بإيراد الأدلة ومدى ثبوتها، لكنه يهمل تحرير المسألة فقهيًّا، وغالبًا لا يهتم بدقة دلالة النصوص على المسألة المبحوثة، وهذا المسلك يكثر في عصرنا لدى المشتغلين بالحديث النبوي وتخريجه.

ولو أن الباحث جمع بين المسلكين، فاهتم بتحرير المسألة وتدقيقها، وتأكد من ثبوت الأدلة ووجه الدلالة منها، واعتنى بأقوال الصحابة والسلف، لكان في ذلك خير كثير.

- مرحلة دراسة المسألة وتمحيصها من أهم المراحل التي ينبغي لطالب العلم - وبخاصة المبتدئ - أن يقوم فيها بمراجعة أهل العلم، وسؤال أهل الاختصاص، وبخاصة في المسائل المشكلة.

الخطوة الرابعة: الترجيح ومناقشة الأدلة:

وهنا يحسن التنبيه على أمور:

- إدراك خطورة الترجيح، وعظم المسؤولية الملقاة على عاتق من يقوم به، وفي المقابل إدراك أهميته، وضرورة قيام الراسخين من أهل العلم به.

- يحسن بالباحث في هذه الخطوة أن يذكر القول الراجح، ويبيِّن أوجه رجحانه، ثم يناقش أدلة الأقوال الأخرى ويجيب عنها[56]، ثم يبين إن كان للخلاف ثمرة أم لا.

- من الأمور الهامة التي لا بد لطالب العلم من التنبه لها قبل أن يخوض غمار الترجيح بين الأقوال، والمقارنة بين أدلتها، والمناقشة لها، ما يلي:

1- ضرورة جمع النصوص في الباب الواحد، قال الإمام أحمد: "الحديث إذا لم تجمع طرقه، لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضًا"[57]، وجمعُ النصوص يزيل كثيرًا من الالتباس والاختلاف، قال ابن تيمية: "وقل أن تعوز النصوص من يكون خبيرًا بها وبدلالتها على الأحكام"[58].

---

[56] بمثل: أن يبين عدم ثبوت الدليل، أو دلالته للقول المختار ووجه ذلك، أو عدم دلالته على القول الذي استدل به له، أو وجود معارض أقوى منه، وهكذا.

[57] "الجامع لأخلاق الراوي"، 2/ 212.

[58] "الحسبة في الإسلام"، ص 65.

2- معرفة أن جميع الأدلة الشرعية الصحيحة يجب اتباعُها والعمل بها، لكن لا ينظر الباحث في القياس والأدلة المختلف فيها، إلا عند فقد النص والإجماع؛ إذ لا اجتهاد مع النص أو الإجماع.

3- الأدلة الشرعية الصحيحة متفقة لا تتعارض ألبتة، فإذا وُجد نصان متعارضان لا يمكن الجمع بينهما بطرق الجمع المعتبرة عند أهل الشأن، فأحدهما إما غير ثابت، وإما منسوخ.

وإذا وجد تعارض بين نص وقياس، فأحدهما غير صحيح.

4- الأدلة منها السمعي ومنها العقلي، وكل منهما قد يكون قطعيًّا وقد يكون ظنيًّا، فالأدلة القطعية أيًّا كانت لا تتعارض بالاتفاق؛ لأن تعارضها يلزم منه اجتماع النقيضين، وهو محال.

وإذا تعارض قطعي وظني، عُمل بالقطعي - سمعيًّا كان أو عقليًّا - لأن الظن لا يَرفع اليقينَ[59].

5- القول بالتعارض بين الأدلة شديد؛ ولذا فالواجب التثبُّت من صحة الأدلة، والتعمق في فهمها[60]، والحرص على درء التعارض بينها بقدر الإمكان.

6- على الباحث حين يقوم بمناقشة الأدلة والترجيح بين الأقوال، أن يحذر من الوقوع في إحدى ظاهرتين:

الأولى: التفريط والتساهل في عرض الأحكام وتقريرها باسم التيسير على الناس، ورفع الحرج عنهم.

الثانية: التضييق على الناس والتشديد عليهم باسم الانضباط بالشرع، والمحافظة على الأصول.

7- التعارض المعتبر الذي يحتاج إلى نظر، هو الذي يقع بين الأدلة الظنية، فإذا وقع تعارض بين دليلين ظنيين، فالواجب على الترتيب: الجمع إن أمكن، فإن تعذر الجمع وعرف التاريخ، قيل بالنسخ، فإن لم يعرف المتأخر، فعلى الباحث أن يلجأ إلى الترجيح لأحدهما بدليل، فإن عجز عن الترجيح، فالواجب التوقف[61]، فإن اضطر إلى العمل، وكانت هذه حاله، فليقم بتقليد أحد المجتهدين[62].

8- لا بد لطالب العلم أثناء الترجيح من التأني في إطلاق الأحكام، وعدم التسرع في الجزم والصرامة في الأحكام التي يختارها، وأن

---

[59] انظر: "درء تعارض العقل والنقل"، لابن تيمية، 1/ 79، "شرح الكوكب المنير"، لابن النجار، 4/ 607 - 608.

[60] الفهم من أهم الملكات الفقهية التي ينبغي السعي لتنميتها، مع أن الناس متفاوتون فيها تفاوتًا عظيمًا، قال الإمام أحمد: "رب شخص يفهم من النص حكمًا أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين"؛ "مفتاح دار السعادة" 1/ 60.

[61] انظر: "شرح الكوكب المنير"، لابن النجار، 4/ 609، "مذكرة أصول الفقه"، للشنقيطي، 317.

[62] انظر: "شرح الكوكب المنير"، لابن النجار، 4/ 613.

يتجنب إطلاق ألفـاظ التحليـل والتحـريم، والحـق والباطـل، والصـحة والخطأ بقدر الإمكان، إلا عندما يكون متيقنًا من أن الأمر كذلك، قـال الأعمش: "ما سمعتُ إبراهيمَ يقـول قـط: حلال ولا حـرام، إنمـا كـان يقول: كـانوا يكرهـون، وكـانوا يسـتحبون"[63]، وقـال الربيـع بن خـثيم: "إياكم أن يقول الرجل لشيء: إن الله حـرَّم هـذا ونهى عنـه، فيقـول الله: كذبتَ، لم أحرِّمه ولم أنهَ عنه، قال: أو يقول: إن الله أحـلَّ هـذا وأمر به، فيقول: كذبتَ، لم أحلَّه ولم آمرْ به"[64]، وقال مالك: "لم يكن من أمر النـاس، ولا من مضـى من سـلفنا، ولا أدري أحـدًا أقتـدي بـه يقول في شيء: هذا حلال وهذا حرام، ما كـانوا يجـترئون على ذلـك، وإنما كانوا يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسـنًا، ونتَّقي هـذا، ولا نـرى هذا"[65].

9- حينما يختـار البـاحث قـولاً، ويقـوم بمناقشـة الأقـوال الأخـرى، وبيان أوجه رجحانها، فلا ينبغي لـه تجـاوز نقـد الأقـوال إلى أصـحابها، والتشـنيع على المخـالفين وتسـفيه آرائهم؛ بـل عليـه التـأدب معهم، والتماس العذر لهم بقدر الإمكان.

10- حين يجد الباحث في المسألة قولاً معتبرًا ولا يجد لـه دليلاً، أو يجد له أدلة غير معتـبرة، ويـرى وجـود أدلـة قويـة لـه، فعليـه ذِكرهـا، ووجوه الدلالة منها.

11- إذا لم يتمكن البـــاحث من الـــترجيح الكلي بين الأقـــوال، فبإمكانه اللجوء إلى الترجيح الجزئي، كأنْ يقول: وهذه الأقوال الثلاثة أقوى الأقوال أو أضعفها، وحين لا يتبين له شيء من ذلـك، فليتوقـف ولا يقدم على شيء لا يسـتطيعه؛ لأنَّ الأمـر عبـادة ودين، ولأنْ يـترك المرءُ الترجيح في بعض المسائل - حتى يفتح اللـه لـه فيهـا ولـو بعـد حين - خيرٌ له من أن يرجح مع وجود إشـكال لديـه، وسـلفُه في ذلـك كثير من الأئمة؛ فقـد توقفـوا في مسـائلَ عديـدة، وهم من هم علمًـا واستنباطًا.

الخطوة الخامسة: تدوين المسألة وصياغتها:

وهنا يحسن التنبيه على أمور:

- في تدوين المسألة أمام الباحث خياران:

الأول: تدوينها حسب الأقوال التي فيها لا القائلين بهـا، وبعـد ذلـك يتم نسبة كل قول إلى قائله، وحين ترتيبهـا في الصـياغة يبـدأ بعـرض القول الأقوى ثم الذي يليه، وهكذا، فإن لم يظهـر للبـاحث أيهـا أكـثر

[63] "سنن الدارمي"، رقم: 184.
[64] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبدالبر، 2/ 1075، رقم: 2090.
[65] "جامع بيان العلم وفضله"، لابن عبدالبر، 2/ 1075، رقم: 2091.

قوة، بدأ بالقول الذي قاله المتقدم، فيبدأ بقول الحنفية، فقول المالكية، وهكذا، وهذا الخيار هو الأولى.

الثاني: تدوينها حسب القائلين لا الأقوال التي فيها، ويبدأ عند ذلك بالقول الذي قاله المتقدم، فيبدأ بقول الحنفية، فقول المالكية، فقول الشافعية، فقول الحنابلة.

- يحسن بالباحث الاقتصار في نسبة الأقوال على المذاهب الفقهية الأربعة، إلا أنْ يرى خلافًا معتبرًا لها من قِبل إمام معتبر، فعند ذلك يدوِّن خلافه لها ناسبًا ذلك إليه.

- حين عرض الأدلة لا بد من ترتيبها حسب منزلتها، بحيث تقدم الأدلة النقلية على الإجماع والأدلة العقلية، ويقدم الإجماع على الأدلة العقلية، وفي الأدلة النقلية يقدم الكتاب على السنة.

- حين تدوين أدلة الأقوال يحسن بالباحث الإعراض عن إيراد الحجج الضعيفة والبراهين الواهية، إلا على سبيل التنبيه لما يحتاج إلى ذلك.

- العناية بصياغة المسألة صياغةً تربوية، تدفع قارئها إلى التطبيق، وتجعله يسارع إلى الامتثال والعمل.

- في عرض الأدلة أمام الباحث خياران:

أ- أن يعرض أدلة كل قول بعد عرض القول مباشرة، بحيث يعرض الدليل، ووجه الدلالة منه، والاعتراض عليه، والجواب عن ذلك، وهذا أولى.

ب- أن يؤخر عرض الأدلة، ووجه الدلالة منها، والاعتراضات عليها، والأجوبة عن ذلك، إلى بعد الانتهاء من عرض الأقوال كلها.

- يحسن أن يتم تدوين المسألة على مرحلتين - كحد أدنى -:

الأولى: يتم التركيز فيها على تدوين القضايا الكلية في المسألة بدقة.

الثانية: يتم التركيز فيها على تدقيق المسألة وتمحيصها، وتدوين القضايا الجزئية بدقة.

وإلا فإنه سيحصل - في الغالب - قصورٌ ظاهر في جوانب البحث الكلية والجزئية.

- أثناء القيام بتدوين المسألة ينبغي مراعاة ما يلي:

أ- الحرص على اختيار العبارات، ووضوح الأسلوب، وتلاؤم ذلك مع طبيعة البحث الفقهية.

ب- جودة العرض، وحسن الترتيب.

ج- الاعتناء بالأمثلة المعاصرة.

د- تحويل المقاييس والموازين إلى المقاييس المعاصرة.

هـ- ربط الأحكام الفقهية بالسلوك والجانب العملي.
و- نقد الواقع في ضوء ما قرره الباحث.
- مراعاة الأصول العلمية للبحث، والتي من أهمها:
* ترقيم الآيات، وتخريج الأحاديث والحكم عليها.
* الأمانة في النقل، والدقة في نسبة الأقوال إلى أصحابها[66].
* الاعتماد على المصادر الأصلية، وعدم اللجوء إلى الثانوي منها، إلا عند الحاجة.
* شرح الغريب، وتوضيح المصطلحات.
* العناية بقواعد اللغة والإملاء وعلامات الترقيم.
* وضع فهارس فنية فيما يحتاج إليه.

[66] مما ينبغي التنبه له: أن ما في كتب المذاهب من الأقوال ليست بالضرورة هي اجتهادات الأئمة الأربعة؛ بل قد تكون من اجتهادات تلاميذهم؛ بل ومتأخري علماء المذهب.